دراسات وبحوث:

دراسة لرؤية (إميل دوركايم) حول منشأ الدِّين ونقدُ (الشَّهيد مطهري) و(جون هيك) لها[1]

د. قربانعلى كريم زاده قراملكى[2] **أ. عبد الله حسيني اسكندريان**[3]

المترجم: د. محمد فراس الحلباوي[4]

ملخّص

الدِّينُ هو أحد العناصر والظَّواهر التي تعاملَ معها البشرُ منذُ زمنٍ بَعيد، ولا يُمكنُ العثورُ على مرحلة تاريخيّة خَلَتْ من الدِّين. وقد شَغلَ أصلُ هذه الظّاهرة المُهمّة عقولَ كثيرٍ من النّاس، وتكوَّنَت حولَها آراءٌ مختلفةٌ. يُؤمنُ (إميل دوركايم - Emile Durkheim) بأنَّ للدِّين منشأً اجتماعيًّا، وهو عاملٌ لوحدة المجتمع وتكامُله، حتى يتخلَّصَ المجتمعُ من التَّناقضات والصِّراعات. وما وراءَ ذلك لا يُمكنُ اعتبارُ أصلٍ أو وظيفة للدِّين. في هذا المقال، يُستخدم المنهجُ الوصفيُّ - التَّحليليُّ لتوضيح مبادئ (دوركايم) في هذا الشّأن، ونقد آرائه من منظور الشَّهيد (مرتضى مطهري) و(جون هيك - John Hick). الأسُّ الرَّئيسُ لنظرية (دوركايم) هو الطَّوطميّةُ، ولكنْ لا تُوجَدُ أدلّةٌ تدلُّ على أنَّ الطَّوطميّةَ قد نشأتْ كما تصوَّرَ (دوركايم)، وأنَّها المصدرُ النِّهائيُّ للأديان الأُخرى. من جهة أخرى، فإنَّ وضعَ التَّعاليم الدِّينيّة والتَّعاليم الاجتماعية، على حدٍّ سواء، تَنفي الوظائفَ الأخلاقيّةَ والرُّوحيّةَ والاقتصاديّةَ والشَّخصيّةَ للدِّين، كما أنَّ تركيزَها فقط على الوظيفة الاجتماعية، والنِّسبيّة، وعدمَ قابليّةِ تعميمِ هذه النَّظريّةِ على جميع البشرِ، هي من بينِ الأمورِ التي تكشفُ بطلانَ نظريّةِ (دوركايم).

الكلمات المفتاحية: منشأ الدِّين، (إميل دوركايم-Emile Durkheim)، الشَّهيد مطهري، الطَّوطمية، جون هيك.

١ - مقالة بعنوان: «بررسى و نقد ديدگاه اميل دوركيم در باب منشأ دين از منظر شهيد مطهرى و جان هيک"، جستارهاى فلسفه دين [مقالات في فلسفة الدِّين]، انجمن علمى فلسفه دين ايران [جمعية فلسفة الدِّين العلمية في إيران]، السنة١١، العدد الأول ربيع وصيف ٢٠٢٢، ص.ص. ١٠١-١١٨.

٢ - أستاذ مساعد في قسم الفلسفة والكلام الإسلامي، كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية، جامعة تبريز.

٣ - طالب دكتوراه في قسم علم الكلام الإسلامي، كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية، جامعة تبريز.

٤ - دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، محاضر في جامعة دمشق، ترجمان محلف.

مقدِّمة

منذُ اليوم الذي وطأتْ أقدامُ البشريّة أرضَ عالَم الوجود، وُجدت الأديانُ والمُعتقَداتُ الدِّينيّةُ، وكان السُّؤالُ عن منشأ الدِّين دائمًا هو السُّؤالُ الرَّئيسُ الذي واجهَ كلَّ إنسان، ولهذا السَّبب فقد حَظيَ باهتمام المُفكِّرينَ في مجال الدِّين. وفي هذا السِّياق، يَرى بعضُهم مثل (أوغست كونت - Auguste Conte) (١٧٩٨-١٨٥٧م) أنَّ منشأ الدِّين هو جهلُ الإنسان[١]، على حين يَعدُّ (ماركس- Marx) (١٨١٨- ١٨٨٣م) الدِّينَ نتاجًا للطَّبقة الحاكمة للسَّيطرة على الطَّبقة الضَّعيفة في المجتمع[٢]. أمّا (فيرباخ- Feuerbach) (١٨٠٤-١٨٧٢م) فيرَى أنَّ للدِّين أصلاً إنسانيًّا[٣]. ويَعدُّ (فرويد- Freud) (١٨٥٦-١٩٣٩م) منشأ الدِّين رغبات وغرائزَ مكبوتةً لدى الإنسان، ويَرى أنَّ شهواتِ الإنسان هي العاملُ الرَّئيسُ في ظهورِ الدِّين[٤].

تتعارضُ هذه المواقفُ الإلحاديّةُ تُجاهَ الدِّين مع رؤية الأديان الإلهيّة التي تَعُدُّ منشأَ الدِّين الوحيَ الإلهيَّ وتعاليمَ الأنبياء. إنَّ أحدَ المواقف الجَديرة بالتأمُّل هو المُقاربةُ السوسيولوجية لمنشأ الدِّين. فـ (إميل دوركايم - Emile Durkheim) (١٨٥٨-١٩١٧م) هو أحدُ أبرز مُنظِّري السوسيولوجيا، وله التأثيرُ الأكبرُ في سوسيولوجيا الدِّين. واستنادًا إلى آرائه فإنَّ الوظيفةَ الأهمَّ للدِّين هي توحيدُ أفرادِ المجتمع من أجل ترسيخ الاتِّحاد في الحياة الاجتماعية، وتُعدُّ الشَّعائرُ الدِّينيّةُ نوعًا من التَّمرين على هذه الوحدة عندَما تُمارَس جماعيًّا. وبرأي (دوركايم)، فإنَّ أحدَ

1 - Auguste Conte: Introduction to Positive Philosophy, p23.

2 - Karl Marx; Friedrich Engels: The Communist Manifesto, p36.

3 - Ludwig Feuerbach: The Essence of Christianity, p104.

٤ - زيغموند فرويد: تابو وتوتيم [التابو والطوطم]، ص٨٠.

العوامل الرَّئيسة الدّافعة للإنسان نحوَ الحياة الاجتماعيّة هو الدِّين وتَعاليمُه. لا يَعتقدُ (دوركايم) بفائدةٍ أُخرى تُرجى من الدِّين، ويَرى أنَّ غايتَه محصورةٌ في المجتمع، ويَعُدُّ الدِّينَ نتاجًا اجتماعيًّا.

بالطَّبع يمُكِنُ رفضُ آراءِ (دوركايم) من جوانبَ متعدِّدة، وهكذا فإنَّ هذه الدِّراسةَ تَسعى لتَحليلِ آراء (دوركايم) ونقدِها من منظورَي الشَّهيد (مرتضى مطهري) (١٩١٩- ١٩٧٨) و(جون هيك - John Hick) (١٩٢٢ - ٢٠١٢ م). وكان (عَلَمي) قد استنتجَ في مقالةٍ نُشرت عام ٢٠٠٣ حولَ دراسةِ منشأ الدِّين من منظورِ (دوركايم) و(طباطبائي) أنَّ العلامةَ (طباطبائي) يَرى أنَّه وعلى الرَّغم من تأثير المجتمعِ في الدِّين، إلّا أنَّه ليس مصدرًا له، وبناءً على ذلك يَرفض نظريّةَ (دوركايم). كما يَنتقِدُ (جواهري دقيقي) في مقالةٍ نُشرت عام ٢٠٠٠ بعنوان: «الدِّين من منظور (دوركايم)» رؤيةَ (دوركايم) بمَنهجيّةٍ فلسفيّةٍ ونظريّة.

لكنْ حتى الآنَ، لم يَجرِ أيُّ بحثٍ يَتناولُ دراسةَ آراء (دوركايم) ونقدَها من منظور الشَّهيد (مطهري) و(جون هيك)، لذلك، فإنَّ هذه الدِّراسةَ تَسعى للإجابة عن مثل هذه الأسئلة: ما الأبعادُ المَعنويّةُ المُختلفةُ لمُصطلحِ «منشأ الدِّين» من منظور (دوركايم)؟ ما الطَّريقةُ المُثلى لدراسة «منشأ الدِّين» وكيف يمُكِنُ تفسيرُ ذلك؟ ما الوظائفُ التي يُؤدِّيها الدِّينُ برأي (دوركايم)؟ ما الفائدةُ الأهمُّ للدِّين كما يَراها (دوركايم)؟ ما دورُ المجتمعِ وعلاقتُه بالدِّين برأي (دوركايم)؟ ما الانتقاداتُ المُوجَّهةُ لنظريّةِ (دوركايم) بناءً على مبادئ الشَّهيد (مطهري) و(جون هيك - John Hick)؟

أولًا: تحرير آراء (إميل دوركايم)

الحديثُ عن منشأ الدِّين والنِّقاشُ حول ذلك من المواضيعِ الهامّة في فلسفة الدِّين واللّاهوتِ الحديث، وقد انبثقَ عن تساؤلاتِ الإنسانِ حولَ الدِّين والمُعتقَداتِ الدِّينية. أمّا بالنِّسبةِ لمُصطلحِ مَنشأ الدِّين فيُمكن التَّركيزُ على ثلاثةِ معانٍ بالحدِّ الأدنى:

١ - سبب ظهور الدِّين

السُّؤالُ عن منشأ الدِّين بهذا المعنى هو في الواقع استفسارٌ عن ظاهرة الدِّين، بغضِّ النَّظرِ

عن قَبولِ البشرِ لها أو رَفضِها. الفرضيّةُ الرَّئيسةُ لهذا السُّؤالِ هي وجودُ الدِّين والمواضيعِ الدِّينيّةِ بشكلٍ حقيقيّ. هنا، يَدورُ النِّقاشُ حول مصدر نشوءِ الدِّين بكونه ظاهرةً خارجيّةً ومُستقلّةً عن قَبول البشرِ، أي مستقلّة عن عقولِهم وكذلك عن المجتمع البشريِّ؟ هل مَنشؤُهُ هو الله والوَحيُ السَّماويُّ، أم أنَّه ناتجٌ عن السِّحرِ والشَّعوذة؟ في تفسيرِ سببِ ظهورِ الدِّين، يُشار إلى جوانبَ مختلفةٍ مثلِ اللهِ أو الإنسانِ، الفردِ أو المجتمعِ، وكذلك الجوانبِ الأخلاقيةِ والرُّوحية والاقتصادية والنَّفسية[1].

٢ - سبب قبول الدِّين أو دافع التديُّن

المَعنى الثاني يتعلَّق بالدِّين كواقعٍ، وهو السُّؤال عن منشأ الدِّين بهذا المعنى، ويَعني حقيقةً الاستفسارَ عن الأسباب والعواملِ التي دفعَت النّاسَ نحوَ الدِّين والتديُّن. وبناءً عليه[2]، فإنَّ الفرضيّةَ الأساسيّةَ لهذا السُّؤالِ هي قَبولُ الدِّينِ كظاهرةٍ نفسيّةٍ أو ظاهرةٍ اجتماعيّةٍ، ويُمكِنُ أن تكونَ الإجابةُ عنه أيضًا ذاتَ توجُّهٍ نفسيٍّ أو اجتماعيّ.

٣ - فائدةُ الدِّين

المَعنى الثالثُ ناظرٌ إلى الجانب العقلانيِّ للدِّين أو الجانبِ الأخلاقيِّ للتديُّن. في هذه المسألة، يُبحث في فوائدِ التديُّن ومنافعه وأضرار عدمِ التديُّن، لتكون توطئةً وتَمهيدًا لدعوة النّاسِ إلى الدِّين، وتَعريفِهم بالمَعارفِ الدِّينية ومفاهيمِها، وفي النِّهاية توجيههم إليها[3].

في قضايا البحث حول الدِّين، يَنبغي التَّمييز بين مُنبَثَقِ الدِّين وبينَ مَنشئه. هاتان المسألتان، على الرغم من ارتباطهما، إلا أنَّهما مُختلفتان. السُّؤال عن منشأ التديُّن في حياة البشرِ هو بالضَّبط ما يَسعى التَّبيينُ إلى توضيحِه، لكنَّ السُّؤالَ عن مُنبثَقِ الدِّين هو في الواقع سؤالٌ عن علاقة التديُّن

1 - Barbara King: Evolving God: A Provocative View on the Origins of Religio, p36.

٢ - دانيال بالس: هفت نظريه در باب دين [سبع نظريات حول الدِّين]، ص٢٤.

٣ - عليرضا قائمى نيا: در آمدى بر منشأ دين [مقدمة في منشأ الدِّين]، ص.ص. ٤٧-٤٨.

بجوانبَ وميادينَ مختلفةٍ من وجود الإنسان.

يَنبغي الالتفاتُ إلى أنَّ نوعَ النَّظرةِ إلى الدِّينِ يُؤثِّرُ في تَبيينِ مَنشئه. وعليه فإنَّ المُفكِّرينَ المُلحدينَ، الذين لا يُؤمنونَ بوجود الله، لا يَقبلونَ بوجودِ الأنبياءِ الإلهيِّينَ والوَحيَ، ويَعتبرونَ أنَّ للدِّينِ مَنشأً عاطفيًّا وشهوانيًّا واجتماعيًّا، وأخيرًا باعتباره حاجةً إنسانيّةً[١]. لكنَّ المُفكِّرينَ المُوحِّدينَ، يُرجعونَ مَنشأ الدِّين إلى الإرادة الإلهيّة التي شُرِعَت بواسطة الأنبياءِ الإلهيِّينَ. وَفقًا لهذا البيانِ، يَميلُ البشرُ فطريًّا إلى الدِّين، والحاجةُ للدِّينِ والمُطالبةُ به هي البُعدُ الرابع من وجود الإنسانِ إلى جانب البحثِ عن الحقيقة، والإرادةِ الخيِّرة، والسَّعي نحوَ الجَمال[٢].

٤ - منشأُ الدِّين من منظور (دوركايم)

من منظور (دوركايم)، فإنَّ الطَّريقةَ المُثلى لدراسة مَنشأ الدِّين ومُنبثَقه هي البحثُ في مجتمعٍ بدائيٍّ يكون في المستوى الأدنى من حيثُ التَّنميةُ والصِّناعةُ والتِّقانةُ[٣]. ولإيجاد الخالق يَنبغي البحثُ عن أبسطِ الأديان؛ لأنَّه وَفقًا لنظريّة (دوركايم)، يمُكن أن يُقدِّمَ أبسَطُ دين الدَّليلَ لتَبيينِ الأديانِ الأخرى. لهذا الغرضِ، جَعل (دوركايم) محورَ بحثه ودراسته هو طوطميّةً قبائلِ أستراليا الأصليّة، التي تُعدُّ، وفقًا لرأيه، الدِّينَ البدائيَّ والأبسطَ بينَ الأديانِ التي ظهرَت في المجتمع البشريِّ. لذلك يَعتقدُ (دوركايم) أنَّ مَنشأ جميع الأديانِ هو الطوطميّة، وأنَّ عبادةَ الطوطمِ مُستمَدّةٌ من الشُّؤون المُجتمعيّة[٤].

---

1 - Karl Marx; Friedrich Engels: Manifesto of the Communist, p76. & Auguste Conte: Introduction to Positive Philosophy, p101. & Ludwig Feuerbach: The Essence of Christianity, p104.

٢ - محمد حسين طباطبائي: الميزان، ج١٢، ص.ص. ٣-٥. وجعفر السبحاني: "دفاع عقلاني عن الدِّين»، فصلية النقد والرأي، العدد الثاني، ص٢١. ومرتضى مطهري: مجموعه آثار [الأعمال الكاملة]، ج٣، ص١٠١. وعبد الله جوادي آملي: انتظار بشر از دين [ما يريده البشر من الدِّين]، ص.ص. ٢٦-٣٢.

3 - Emile Durkheim: The Elementary Forms of Religious Life, p1.

4 - Emile Durkheim: The Elementary Forms of Religious Life, p5.

لذا، يَنبغي البحثُ عن أصل الدِّين في المجتمع؛ لأنَّ أصلَ الأديان هو الطوطمُ، الذي يُستَمدُّ من مُعتقَدات مجتمعٍ مُعينٍ. يقول (دوركايم) في هذا الصَّدد: "إنَّ الأشياءَ التي تَرتبط بالطوطم تتمتَّعُ بالقَداسة، لأنَّها جميعًا تَنبع من أصلٍ مشترك. في الواقع، يَعتمد الأداءُ الدِّينيُّ الطوطميُّ أكثرَ على هذا الأمرِ المشترك الطوطميِّ، بدلاً من الطوطمات المُنفصلة. بعبارة أُخرى، الدِّين لا يَعتمد على هذه الحيوانات الطَّوطمية أو البَشر أو الصُّوَر، بل يَعتمد على قوّة غير شخصيّة بلا اسم تَظهر في كلٍّ من هذه الظَّواهر، لكنَّها ليسَت واحدةً منها»[1]، ويُتابع قائلاً إنَّ هذه القوّةَ غيرَ الشَّخصية تتحوَّلُ إلى مفهوم «المانا» المعروف، ويَقول (دوركايم) في هذا الشّأن: «هذه هي المادّةُ الرَّئيسةُ التي تُبنى عليها جميعُ أنواع الظَّواهر المُقدَّسة والمُحترَمة في جميع الأوقات. الأرواح، الشَّياطين، الجنّ، وجميعُ أنواع الآلهة هي تَجسيداتٌ لهذه الطّاقة أو الإمكانيّة الكامنة التي تُظهرُ نفسَها من خلالها»[2].

يَعتقدُ (دوركايم) أنَّه لدراسة أصلِ الدِّين وفهمه يَنبغي البَدءُ بالأديان البدائيّة؛ لأنَّ الأديانَ الأولى تجلَّت في شكل آلهة الطَّبيعة وعبادة الطَّوطم، ويَنبغي البحثُ عن أصل الدِّين في مثل هذه الحالات. يَرى (دوركايم) أنَّ ثمّةَ مسارًا تطوُّريًّا للأديان يَبدأ من عبادة الطَّوطم ويتحوَّلُ إلى الأديان الحاليّة، وأنَّ المصدرَ الرَّئيسَ للأديان الحاليّة مُرتبطٌ بالأديان البدائيّة نفسها وتعاليمها.

٥ - وظيفة الدِّين

فضلاً عمّا يُثبتُه (دوركايم) من أنَّ الدِّين يُجسِّدُ الحقائقَ الأساسيّةَ بشكلٍ رمزيٍّ، فإنَّ له دورًا آخَر وهو دورُ توحيد المجتمع. هذه الرُّؤية لـ(دوركايم) أساسيّةٌ في نشأة النَّظرية الوَظيفيّة. تقول النَّظريّةُ الوَظيفيّةُ أساسًا إنَّه يَجب التعرُّفُ على المؤسَّسة الاجتماعيّة بحسب ما تُمارسُه من دورٍ في بقاء مجتمعٍ أو وحدته وتماسُكه[3]، لذلك، فإنَّ (دوركايم) يَعدُّ الوظيفةَ أو الدَّورَ الرَّئيسَ للدِّين هو

1 - Emile Durkheim: The Elementary Forms of Religious Life, p78.

٢ - مالكوم هميلتون: جامعه شناسى دين [علم اجتماع الدِّين]، ص١٧٤.

٣ - أنطونيو مورينو: يونگ، خدايان و انسان مدرن [يونغ، الآلهة والإنسان الحديث]، ص١٠٤.

تعزيزُ الانسجام وتوحيدُ المجتمع، ويَعتقد أنَّ الدِّين يُحقِّق هذه الوظيفةَ من خلال الطُّقوس[١].

يُشير (دوركايم) إلى الوظائفِ التي يُؤدِّيها الدِّينُ في المجتمع من خلال الطُّقوسِ الدِّينية، ويَذكر النّقاطَ الآتية:

١. تُؤدِّي الطُّقوسُ دَورًا أوليًّا وتأديبيًّا، أي إنَّ الطُّقوسَ تَفرض نوعًا من ضبطِ النَّفس على الفَرد، وهو أمرٌ ضروريٌّ للحياة الاجتماعية. يَحتاج أعضاءُ المجتمعِ إلى التكيُّف مع الالتزاماتِ والقُيودِ والحدودِ، وتُمارِسُ الطُّقوسُ الدِّينيّةُ دورًا كبيرًا في هذا التكيُّف[٢].

٢. الدَّورُ الثاني للطُّقوسِ والمُناسباتِ الدِّينيّةِ هو أنَّها تُمارِسُ دورًا كبيرًا في توحيد المُجتمع، وكذلك في خَلق شعورٍ بالتعاطُف وتَعزيز الرَّوابطِ في المجتمع، ويُمكن أن يَظهر هذا الشُّعور بشكل أكبرَ في الأعمال الجماعية. سيَّما في الحالات التي يتعرَّضُ فيها المجتمعُ لكوارثَ ومصائبَ أحيانًا تُصيب المجتمعَ. في هذه الأوقات، يتَّضح دورُ الطُّقوسِ الدِّينيةِ أكثر[٣].

يَعتقدُ (دوركايم) أنَّ الوظيفةَ الأهمَّ للدِّين هي تَوحيدُ أفراد المجتمعِ من أجل الاتِّحادِ في الحياة الاجتماعية، ويَعدُّ الشَّعائرَ الدِّينيّةَ التي تُمارَس بشكلٍ جماعيٍّ نوعًا من التَّدريب على هذا التَّوحيد. ويَعتقد (دوركايم) أنَّ أحدَ العواملِ الأساسيّةِ لانجذاب الإنسان للحياة الاجتماعية هو الدِّينُ وتعاليمُه.

٦ - تفسير النَّظرية

تأثَّرَ (دوركايم) في نظريّته بالمبادئ التي تَحتاج إلى معرفةٍ بها لفَهمِ نظريّته، وفي هذا القِسم نقومُ بتَفسير آراء (دوركايم) حول المبادئ الأساسيّةِ لنظريّته:

---

١ - إميل دوركايم: قواعد روش جامعه شناسى [القواعد المنهجيّة في علم الاجتماع]، ص٨٧.

٢ - إميل دوركايم: صور بنياني حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ص٩٠.

٣ - إميل دوركايم: صور بنياني حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ص٩١.

أ - الدِّين من منظور (دوركايم)

يقول (دوركايم) في تعريفه للدِّين: «الدِّينُ ليس سوى القوّة الجَمعيّة للمجتمع المُسيطرة على الأفراد، فالدِّينُ نظامٌ فكريٌّ يَعكس الأفرادُ من خلاله أنفسَهم، ويُعبرِّونَ من خلاله عن علاقاتهم الغامضة، وفي الوقت نفسه الحَميمة معَ المجتمع»[1]، برأي (دوركايم)، الدِّينُ ليس وهماً أو شيئًا لا أساسَ له، والمُعتقدونَ به يَشعرونَ بالارتباط بقوّة خارجيّة وشيءٍ خارجيٍّ، ويُدركونَ الأشياءَ القيِّمةَ التي منحَها لَهم، ويَفهمونَ أنَّهم لَيسوا في وَهمٍ أو خطأ. هذه القوّةُ مَوجودةٌ بالفِعل، وهي المجتمعُ نفسُه[2].

على عكس أولئكَ مثل (فرويد - Freud) و(فويرباخ - Feuerbach) الذين عَدُّوا الدِّينَ أمرًا لا أساسَ له، وحتى إنَّه ضارٌّ، وقالوا بأصلٍ شهوانيٍّ وإنسانيٍّ له، انتقدَ (دوركايم) آراءَهم وقال بدَورٍ عظيمٍ للدِّين في الحضارة الإنسانية[3].

كان (دوركايم) يُؤكِّدُ على أنَّ الدِّينَ هو ظاهرةٌ عقليّةٌ وواقعٌ خالدٌ لا يُمكن إنكارُه. في الوقت نفسه، يَعتقدُ (دوركايم) أنَّ جوهرَ الدِّين ليسَ في الإيمان بإله غيبيٍّ وبالعالَم. ثمّةَ أديانٌ تتمتَّعُ بمستوًى عالٍ من التَّعاليم والمعارف مثل «دين بوذا»، الذي ليسَ فيه إيمانٌ بالله. برأي (دوركايم)، لا يُمكنُ إيلاءُ مفاهيمَ مثلِ الغَيبيّات والرَّمزيّة دورًا في تعريف الدِّين. يَعدُّ (دوركايم) ما فوقَ الطَّبيعة نقطةً مقابلةً للطَّبيعة، وكي نتمكَّنَ من الحصول على صُوَرٍ واضحة وشفّافة في أذهاننا عن الطَّبيعة، يَنبغي علينا بالضَّرورة استخدامُ الطَّريقة العلميّة والبرُهانيّة، كونُ المَفهوم فوقَ الطَّبيعيِّ [الغيبيِّ] مَفهومًا لاحقًا، لا يُمكنُ أن يَسبقَ المفهومَ الطَّبيعيَّ[4]!

يُعرِّفُ (دوركايم) الدِّينَ كما يأتي: الدِّينُ هو نظامٌ فريدٌ من المُعتقَدات والأفعال المُتعلِّقة بالأمور المُقدَّسة، مُنفصِلٌ عن الأمورِ غيرِ المُقدَّسة والمَحظورة. تَجمع هذه المُعتقَداتُ والأفعالُ

١ - إميل دوركايم: جامعه شناسى و فلسفه [علم الاجتماع والفلسفة]، ص٥٤.
٢ - إميل دوركايم: جامعه شناسى و فلسفه [علم الاجتماع والفلسفة]، ص٦٠.
٣ - أنطونيو مورنو: يونگ، خدايان و انسان مدرن [يونغ، الآلهة والإنسان الحديث]، ص١٠٩.
٤ - إميل دوركايم: قواعد روش جامعه شناختى [قواعد منهج الدراسات الاجتماعية]، ص٤٣.

أولئكَ الذين يُؤمنونَ بها في تجمُّع أخلاقيٍّ يُسمَّى "الكنيسة" (تنظيم دينيّ مُوحَّد).[1]

لا يُمكن العثورُ على أيِّ أثر مباشر لرُؤيته الوَظيفيّة في هذا التَّعريف الشَّهير لـ (دوركايم) عن "الدِّين». فهو يَسعى في هذا التَّعريفِ للتَّعبيرِ عن جانبَينِ في الدِّين يَعدُّهُما مُهمَّين جدًّا ويُؤكِّدُ عليهما: الأول أنَّه يَقصد بذكره للأمورِ المُقدَّسة في التَّعريف أن يَحذف الشَّرطَ الغَيبيَّ للدِّين، والآخر أنَّه من خلال إشارته إلى افتراض وجود مُجتمَع أخلاقيٍّ للدِّين أن يُمايزَه عن أنواعٍ أخرى من أشباهِ الدِّين لاسيَّما السِّحر. يَنبغي البحثُ عن الصِّبغة الوَظيفيّة في رؤية (دوركايم)، ليس في تعريفه فحسب، بل في مضمون آرائه، لا سيَّما حينَ يُركِّزُ على النُّسُكِ الدِّينيّة، ويَعدُّها العاملَ الرَّئيسَ في الانسجام الاجتماعيِّ.

يَعمل دوركايم في هذا التَّعريف بالأسلوب الفكريِّ الذي يَسعى من خلاله لاكتشاف العناصرِ الرَّئيسة المُشتركة في مَصاديقَ مُتنوِّعة من ظاهرة مُعيَّنة إلى تعريف شامل لا يُمكن الطَّعنُ فيه، ويكونَ مُعترَفًا به لتلكَ الظّاهرة. يَعتقد (دوركايم) أنَّ الأمرَ المُقدَّسَ هو العنصرُ الرَّئيسُ الذي يُحدِّدُ طبيعةَ الدِّين، والذي يُمكن العثورُ عليه في جميع الأشكال الدِّينيّة منذُ المُجتمعاتِ البدائيّة وحتى الآنَ، ومن ثَمَّ يُقدِّمُ تعريفَه للدِّين باستخدام هذا المَفهوم.

ب - دور المجتمع وأصالتُه

يَمنحُ (دوركايم) دورًا أساسيًّا للمجتمعِ في جميع الأحداثِ الاجتماعيّة والجَماعيّة، بحيثُ يَعدُّ هويّةَ المجتمعِ ووظيفتَه مُستقلّةً عن وظائف الأفراد. وكما يتَّضح في كثيرٍ من أعمال (دوركايم)، فإنَّ المجتمعَ من منظوره هو كيانٌ قويٌّ جدًّا، حيث لا يَمتلكُ الأفرادُ أمامَه تقريبًا أيَّ قوّةٍ ويَخضعون لهذه القوّة المُجتمعيّة[2].

يُشكِّلُ المُجتمعُ الأساسَ لنَظريّاتِ (دوركايم)، كما أنَّ الاقتصادَ هو أساسُ نظريّة (ماركس - Marx)، والغريزةُ هي أساسُ نظرية (فرويد - Freud). يُخصِّصُ (دوركايم) دورًا خاصًّا للمجتمعِ،

---

١ - إميل دوركايم: صور بنياني حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ص٣٤.

٢ - إميل دوركايم: قواعد روش جامعه شناسى [القواعد المنهجيّة في علم الاجتماع]، ص٨٠. & إميل دوركايم: جامعه شناسى و فلسفه [علم الاجتماع والفلسفة]، ص٢٤.

ويَعدُّه عاملاً للتَّوحيد بينَ البشر، عاملاً أيضًا لتقدُّم الحضارات ورُقيِّها. يَعتقد أنَّه كان للمجتمع تأثيرٌ في تحوُّل الأديان وتطوُّرها، وقد أوضحَ دورَ المجتمعِ في مسار تطوُّرِ الأديانِ في كتابه "الصُّوَر الرَّئيسة في الحياة الدِّينيّة"[1].

برأي (دوركايم)، يُوقِظُ المجتمعُ فينا الشُّعورَ المَلكوتيَّ. المجتمعُ هو مصدرُ الأمر الذي يُفرَض علينا، وهو أيضًا واقعٌ نوعيٌّ يتفوَّقُ على الأفراد ويَطلب الاحترامَ والتَّضحيةَ والتَّقدير. يُسهِّلُ المجتمعُ أيضًا ظهورَ المُعتقَدات؛ لأنَّ الأفرادَ الذين يَقتربونَ بعضُهم من بَعضٍ، نتيجةً للغليان النّاجم عن الإدمان والحركات الاجتماعيّة، يَجدون نوعًا من التعاطُف مع بعضِهم، ويَكتسبونَ القدرةَ على إظهار حالات مَلكوتيّة[2]، كما يَعتقِدُ (دوركايم) أنَّ المجتمعَ هو خالقُ الدِّينِ عندما يكونُ في حالة غَليان[3].

أَوْلى (دوركايم) في جميع دراساته وأبحاثه أهمِّيةً كبيرةً لقضايا المجتمع والعَلاقات الاجتماعيّة وتأثيرِ المجتمعِ في الفَرد، ويُمكن ملاحظةُ أهمِّيةِ المجتمعِ بالنِّسبةِ له في العبارة الآتية:

تَسير عمليّةُ تمدُّن الإنسان في المجتمع ومن خلال المجتمع، وهو ما يُمثِّلُ وجهَ التَّمايُز الوَحيد للإنسان عن باقي الحيوانات الأخرى، بأنَّ الإنسانَ عنصرٌ اجتماعيٌّ وجزءٌ من كيانٍ اجتماعيٍّ. لذلك إذا لم يكنِ الإنسانُ في المجتمع ولم يعِشْ فيه، فلَن يكونَ أكثرَ من حيوان. من خلال المجتمع تتحوَّلُ الحيوانيّةُ إلى مقامٍ إنسانيٍّ[4]، ويَعتقِدُ بأنَّه في العصور الماضية كان يَنشأ التَّماسُكُ الاجتماعيُّ من خلال التَّجانُس والتَّشابه. في تلك المجتمعات كانَت أُسسُ القرابة والعِرق قويّةً، لكنْ في المجتمعات الحَديثة ضعفتِ العلاقاتُ؛ لذا تَحتاجُ المجتمعاتُ إلى أسسٍ أخلاقيٍّ مشتركٍ لتَوفيرِ تماسُكِها.

---

١ - إميل دوركايم: صور بنياني حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ص.ص. ٢٣-٤٢.

٢ - آرون ريمون: مراحل اساسى سير انديشه در جامعه شناسى [المراحل الرئيسة لمسار الفكر في علم الاجتماع]، ص٤٠١.

٣ - آرون ريمون: مراحل اساسى سير انديشه در جامعه شناسى [المراحل الرئيسة لمسار الفكر في علم الاجتماع]، ص٤٠٩.

٤ - إميل دوركايم: قواعد روش جامعه شناسى [القواعد المنهجيّة في علم الاجتماع]، ص٣٤.

برأي (دوركايم) لا يُمكن فصلُ الالتزامات الأخلاقيّة للفَرد تُجاهَ الآخرينَ عن الدِّين، حيثُ يُمارِسُ الدِّينُ دورًا كبيرًا في تَشكيل التَّماسُك الاجتماعيِّ وإلزام الفرد بالأسِّ الأخلاقيِّ. بناءً على ذلك، كان (دوركايم) يُولي اهتمامًا بهذه النُّقطة، إذْ لا يُمكن تفسيرُ المجتمع جيِّدًا دون النَّظر إلى الدِّين، لأنَّ الدِّينَ هو عاملُ التَّماسُك الاجتماعيِّ. بعبارة أخرى، الدِّينُ والأَخلاقُ غيرُ مُنفصلَين عن النَّسيج الاجتماعيِّ، وبدونهما لا يُمكن أن يُوجَدا[1]، يَعتقد (دوركايم) أنَّ الإنسانَ وجودٌ بالقوّة [لديه الإمكانُ ليُصبحَ إنسانًا]، والمجتمعُ يَجعلُه إنسانًا بالفعل [إنسانًا مُتحقِّقًا]؛ أي أنَّ الإنسانَ يأخذُ لغةَ العادات والتَّقاليد والأفكار والمُعتقَدات من المجتمع، ولو لم يكنْ ثمّةَ مجتمعٌ، لَما وصلَ الإنسانُ إلى هذا المُستوى من التقدُّم والحَضارة. هذا المجتمعُ هو الذي يَعمل على إظهار مواهب البشر، ليَستفيدوا منها في تلبية احتياجاتهم وتَجاوُز مَشاكلهم.

ب - الطَّوطم والطَّوطميّة

يَعدُّ (دوركايم) أبسطَ دينٍ موجودٍ هو "الطَّوطم"، أو ما يُعرف بدين القَبائل الأصليّة الأستراليّة. برأيه، فإنَّ أوَّلَ شكلٍ من أشكال الدِّين وأبسطَه هو الطَّوطمية. برأي (دوركايم)، فإنَّ الطَّوطَمَ يَحظى بأهمِّيّة من جانبَين؛ أولًا، أنَّ الطَّوطمَ هو الأصلُ وجوهرُ الدِّين، وثانيًا، أنَّ الطَّوطميّةَ تُعدُّ عاملًا لحلِّ التَّوتُّرات بين العلم والدِّين؛ لأنَّه، وكما يُعتقَدُ في المجتمعات الفَردانيّة والعَقلانيّة المُعاصرة، أنَّ السُّلطةَ العُليا الأَخلاقيّةَ والفكريّةَ هي بيد العلم. من جهة أخرى، يُحدِّدُ الدِّينُ أيضًا أُطرًا مُعيَّنةً للأفراد والعلم من خلال اكتشاف الحقائق العَميقة لجَميع الأديان، وهكذا فإنَّه لا يُنشئُ دِينًا آخَرَ، بل يَخلُقُ الثِّقةَ بأنَّ المُجتمعَ لديه القُدرةَ على خلق الآلهة التي يَحتاجُها في كلِّ فترة[2].

لإيضاح مفهوم الطَّوطم من منظور (دوركايم)، نَذكرُ عبارةً له لنَفهمَ بشكلٍ صَحيح ما يَعنيه الطَّوطم كمصدرٍ للدِّين؛ النُّقطةُ الأولى هي ما «الطوطم»؟ وأينَ يَنبغي البحثُ عن جذور الطَّوطم؟

يقول (دوركايم) في تعريف الطَّوطم: يُطلَقُ مصطلحُ الطَّوطم على الكائن الذي يَعدُّه أعضاءُ الجماعة أمرًا مقدَّسًا، ويَعتقد معظمُ الباحثينَ أنَّه شكلٌ من الأجداد. في الواقع، تُطلِقُ الجماعاتُ

١ - إميل دوركايم: قواعد روش جامعه شناسى [القواعد المنهجيّة في علم الاجتماع]، ص٣٦.

٢ - جورج ريتزر: نظريه جامعه شناسى در دوران معاصر [نظرية علم الاجتماع في العصر الحديث]، ص٢٣.

الطَّوطميةُ اسمَ الطَّوطم على حيوان أو نبات أو كائناتٍ مُعيَّنة، وعادةً ما يُعَدُّ هذا الطَّوطم سلفًا للجماعة، ونتيجةً لذلك، يُعَدُّ كلُّ الأفراد الذين لدَيهم طوطم مُشتركٌ أقاربَ[١].

نظرًا لهذه القرابة، يمُنع الزواج من داخل الجماعة بسبب وجود طوطم مشترك؛ أي أنَّ المرأة والرجل من جماعة طوطمية واحدة لا يمكنهما الزواج من بعضهما، وينبغي عليهما اختيار شريك من بين الأفراد ممن ليسوا أعضاءً في جماعتهما. باختصار، فإنَّ الطوطم، سواء أكان حيوانيًا أم نباتيًا، هو أصل الجماعة البشرية وسلفها، ويُعدّ مُحققًا لرغباتها واحتياجاتها وهو الهدف لعبادتها وحمايتها، وفي الوقت نفسه، يُظهر اسم الجماعة ونسبها أيضًا:

أي أنَّ الطوطم هو بمثابة عَلَم الجماعة وعلامة تميّز بها كل جماعة نفسها عن الجماعات الأخرى، وهو في الواقع علامةٌ مَرئيّةٌ وشخصيّةٌ للجَماعة؛ علامةٌ يَحملها كلُّ شخصٍ وكلُّ شيءٍ من إنسان وحيوانٍ وأشياء، بأيِّ صفةٍ كانَت، وهي تتعلَّقُ بالجَماعة[٢].

إحدى القضايا المُهمّة الأُخرى المُتعلِّقة بالطَّوطمية هي الإجابةُ عن السُّؤال: ما مَنشأ الطَّوطميّة؟ تَوصَّلَ (دوركايم) من خلال أبحاثه ودراساته بين القبائلِ الأصليّة والبدائيّة في أستراليا إلى أنَّ الطَّوطمية هي الشَّكلُ البدائيُّ للأديان[٣]، لكن كيفَ ابتكرَ البشُر الذين كانَت الطوطميّة شائعةً بينَهم هذه الفكرةَ، وممَّ صَنعوها؟ من الواضح أنَّ الأشياءَ التي تُعَدُّ طَوطمًا لا تصلُ إلى الذِّهنِ من خلال المَشاعر.

يَعتقد (دوركايم) أنَّ الطَّوطم هو قبلَ كلِّ شيءٍ رمزٌ؛ أي أنَّه تعبيرٌ ماديٌّ عن بعض الأشياء الأُخرى، لكنْ عن ماذا يُعبِّرُ؟ يُجيبُ بأنَّ التَّحليلات ذاتَ الصِّلة تُوضِّحُ أنَّ الطَّوطمَ يَعرضُ فئتَين مُختلفتَين من الأشياء: أولاً، الطوطم هو الشَّكلُ الخارجيُّ والملَموسُ لِما نُسمِّيه "أصل الطوطم" أو "الإله". لكنَّ ذلك الشَّيءَ هو أيضًا رمزٌ لمجتمعٍ مُعيَّنٍ يُطلَقُ عليه اسمُ الجماعة. الطَّوطمُ هو عَلَمُ الجماعة وعلامةٌ تُميِّزُ نفسَها بها عن باقي الجماعات، هي علامةٌ حسيّةٌ لشخصيّةٍ كُبرى تُشير إليها جميعُ الأشياءِ التي تَحمل عناوينَ مثل البَشر، الحيوانات أو الأشياء التي هي جزءٌ

١ - إميل دوركايم: صور بنيانى حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ص٧٠.
٢ - إميل دوركايم: صور بنياني حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ص٧٢.
٣ -أنطونيو مورنو: يونگ، خدايان و انسان مدرن [يونغ، الآلهة والإنسان الحديث]، ص٢٤.

من الجماعة[1]. لذلك، إذا كان الطوطم أو الأشياءُ التي تُعدُّ جزءًا من الجماعة في الوقت نفسه رَمزًا لله والمجتمع، أليسَ هذا بسببِ أنَّ اللهَ والمجتمعَ هما شيءٌ واحدٌ؟ وعليه فإنَّ إلهَ الجماعة والمبادئَ الطَّوطمية لا يمُكن أن يكونا شيئًا آخرَ غيرَ الجماعة نفسها؛ مبدأ يُحدَّد ويُصوَّر على هيئة حيوانٍ أو نباتٍ يُستخدم كرَمزٍ. لكنْ كيفَ نشأ هذا الإلهُ، وكيف أصبحَ بهذه الصُّورة؟

يَعتقد (دوركايم) في هذا الصَّدد أنَّ الطَّوطمية هي نظامٌ دينيٌّ مُعيَّنٌ له عموميّةٌ لحدٍّ ما، ويَتطلَّبُ الاعتقادَ بنوعٍ من الجوهرِ الطَّبيعيِّ أو المُكتسَبِ بين الإنسانِ والحيوان أو حتى النَّبات. بالطَّبع، ثمّةَ مَن يَعتقد بأنَّ الطَّوطمية هي مصدرٌ للطُّقوسِ القائمة على عبادة النَّباتات والحيوانات، وهو ما يُعارضُه (دوركايم) الذي يَرى أنَّ نشوءَ مثلِ هذه الطُّقوسِ يتطلَّبُ دراسةَ الأسبابِ والعواملِ المُتعدِّدة[2]. يَتناول (دوركايم) في دراساته العلاقاتِ المَوجودةَ في الطوطمية التي يمُكن أن تُساعدَ في فهمِ طبيعةِ الدِّينِ بسُهولة. ولهذا الغرض، يقول إنَّه لفَهم طبيعةِ الدِّينِ يَجب أن نَذهبَ إلى القبائل البدائيّة الموجودةِ في أستراليا؛ لأنَّ القبائلَ الأستراليّةَ، حسب رأيه، هي المكانُ الأنسَبُ لدراسة الطَّوطميّة[3]. والذي جعل (دوركايم) يختارُ هذه البيئةَ هو أنَّ أفرادَها مُتشابهونَ تمامًا، وعلى الرّغم من وجود تنوُّعٍ بينَهم، إلا أنَّهم جميعًا من نوعٍ واحدٍ. من ناحيةٍ أخرى، كانَت الوثائقُ الأكثرُ اكتمالاً حولَ تلك القبائلِ مُتاحةً.

من المُهمِّ أن نذكرَ أنَّ هدفَ (دوركايم) في هذا البحث هو دراسة الدِّينِ الأقدمِ والأبسَطِ الذي تمكَّنَ الإنسانُ من الوصولِ إليه حتى ذلك الحين. لذلك، من الطَّبيعيِّ أن نحتاجَ إلى الرُّجوع إلى المُجتمعاتِ التي كانَت أقربَ إلى بدايةِ التحوُّلِ الدِّينيِّ للإنسان، والتي تَعني القبائلَ الأصليّةَ في أستراليا.

ثانيًا: نقد نظرية (دوركايم) ومراجعتُها

وُجِّهَت انتقاداتٌ لرأي (دوركايم) حول أصلِ الدِّينِ، وهنا نَعرض نظريّةَ (دوركايم) ونُناقِشُها

1 - Emile Durkheim: The Elementary Forms of Religious Life, p144.

٢ - علي رضا شجاعي زند: جامعه شناسى دين [علم اجتماع الدِّين]، ص٢٩.

٣ - إميل دوركايم: قواعد روش جامعه شناسى [القواعد المنهجيّة في علم الاجتماع]، ص٤٤.

من منظورِ مُفكِّرٍ إسلاميٍّ، وهو الشَّهيد (مرتضى مطهري)، ومُفكِّرٍ مسيحيٍّ، وهو (جون هيك- John Hick).

١ - نقد الشَّهيد (مطهري)

قام الشَّهيدُ (مطهري) بدراسة نظريّةِ (دوركايم) من حيثُ الأُسُس واللَّوازم، وسنقومُ بدراسة ذلك وتَحليله.

النَّقدُ الأوَّلُ للشَّهيدِ (مطهري) يَعتمد على تركيبةِ المجتمعِ من وجهةِ نظرِ (دوركايم). من منظورِ الشَّهيد (مطهري)، فإنَّ نوعَ النَّظرةِ إلى المجتمعِ، والرُّؤيةَ المُتطرِّفةَ التي قدَّمَها (دوركايم) حول دورِه ووظيفته، كانَت السَّببَ الرَّئيسَ في حدوثِ هذا الخَلطِ الكبيرِ، حيث عدَّ المجتمعَ هو العاملَ في نشوءِ الدِّين[١]. يَعتقد الشَّهيدُ (مطهري) بأنَّ الأسَّ النَّظريَّ لنظريّةِ (دوركايم) هو المجتمع، الذي يُذكَر مع نظرةٍ أصوليّةٍ مُتشدِّدةٍ حولَه.

برأي الشَّهيد (مطهري) يُؤمِنُ (دوركايم) بأصالة المجتمعِ، ويَعتبرُه "تركيبًا حقيقيًّا»، في حين أنَّ المجتمعَ هو تركيبٌ اعتباريٌّ[٢]، يُوضِّحُ الشَّهيدُ (مطهري) في تعريفِه للتركَّيب الاعتباريِّ والتَّركيبِ الحقيقيِّ ما يأتي:

التَّركيبُ الاعتباريُّ يَعني مجموعَ الأشياءِ التي يَسود بينَها نوعٌ من التَّرابُط، دونَ أن تَفقدَ شخصيّتَها، أو أن تذوبَ شخصيّتُها في شخصيّةِ الكلِّ وتَندمجَ فيها. أمّا في التَّركيبِ الحقيقيِّ، فإنَّ أجزاءَ التَّركيب تَفقدُ شخصيّتَها وتَذوبُ في شخصيّةِ الكلِّ، أي أنَّها لا تَحتفظ بوضعِها السّابق، وتَفقد ماهيّتَها وتكتسبُ ماهيّةً جديدةً هي ماهيّةُ الكلِّ؛ مثل التَّركيباتِ الطَّبيعيّةِ والكيميائيّة[٣].

يَعتقدُ الشَّهيد (مطهري) أنَّ العاملَ الأساسَ الذي جعلَ (دوركايم) يَمتلكُ هذه الرُّؤيةَ حول مَنشأ الدِّينِ هو ما يَعتقده حولَ تركيبةِ المجتمع، إذ إنَّه يَعدُّ تركيبَ المجتمعِ «تركيبًا حقيقيًّا»، حيثُ

١ - مرتضى مطهري: فطرت [الفطرة]، ص٦٧.
٢ - مرتضى مطهري: فطرت [الفطرة]، ص٧٠.
٣ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار [الأعمال الكاملة]، ص٢٣١.

تَستقي جميعُ أجزائه شخصيّتَها ووُجودَها من المجتمع. وبالنِّسبة نفسها، فإنَّ الدِّينَ أيضًا في نشأته وتطوُّره يتأثَّرُ بالمجتمع، ويُعدُّ عضوًا في هذا التَّركيبِ الحقيقيِّ غيرَ مُنفصلٍ عنه[1]، يَرى (مطهري) أنَّ تركيبةَ المجتمعِ ليسَت كما تصوَّرَها (دوركايم)، بل هي ذاتُ «تركيب اعتباريٍّ». عليه يَرى الشَّهيد (مطهري) أنَّ المجتمعَ ليس العاملَ الرَّئيسَ في نشوءِ الدِّينِ، بل هو مجرَّدُ عاملٍ مُؤثِّرٍ في تحوُّل الدِّينِ، إذ يُعبِّرُ الدِّينُ عن بعض التَّعاليم وفقًا لمُقتضياتِ المُجتمع، مثل معجزاتِ الأنبياءِ الإلهيِّينَ، التي كانَت تتناسبُ مع ظروف كلِّ مجتمعٍ على حِده، ولكنْ لا يُمكن عدُّ المجتمعِ هو العامل الرَّئيس في نشوءِ الدِّينِ، والحقيقةُ التي قدَّمَها (دوركايم) حولَ المجتمعِ مَرفوضةٌ[2].

يَرى الشَّهيدُ (مطهري) أنَّ تصوُّرَ «التَّركيب الحقيقيِّ» الذي يَعنيه (دوركايم) يُؤدِّي إلى «الجَبر الاجتماعي»، حيث لا مكانَ لإرادة الفردِ وشخصيّته، وحيثُ يَفقد الفردُ أساسًا أيَّ استقلال وإرادة خاصّةٍ به أمامَ المجتمع، كما أنَّ جميعَ عناصرِ المجتمعِ كذلك فاقدةٌ للإرادة، وهي تُمثِّلُ حصيلةً للمجتمع، وهكذا فهذا التَّصوُّر عن هذا المجتمع كمصدرٍ للدِّين هو ما يُنشِئُ هذه الرُّؤيةَ للدِّين[3].

النَّقد الآخرُ الذي يُقدِّمُه الشَّهيد (مطهري) حول نظريّة (دوركايم) يتعلَّقُ بلَوازمِ هذه النَّظريّة. يَعتقد (دوركايم) أنَّ الدِّينَ، رغم كونه أمرًا اجتماعيًّا، وله فوائد ونتائج إيجابيّة عديدة، إلا أنَّ له بعضَ النَّتائجِ السَّلبيّة أيضًا، مثل أنَّه يُؤدِّي إلى اغتراب الإنسان؛ لأنَّ الإنسانَ كائنٌ اجتماعيٌّ، والبُعدُ الاجتماعيُّ جزءٌ من هويّته. من جهةٍ أخرى، الدِّينُ الذي له جانبٌ شخصيٌّ يُؤدِّي إلى ظهور بُعدٍ فرديٍّ فيه، وبذلك يتشكَّلُ بُعدانِ غَريبانِ ومن شخصيّتَينِ مُختلفتَينِ في الإنسان[4].

انتقدَ الشَّهيد (مطهري) هذا الرّأيَ لـ (دوركايم) الذي يَعدُّ الإنسانَ ذا شخصيّتَين، أي أنَّه يَمتلِكُ (أنا) اجتماعيًّا وآخرَ فرديًّا، فعِندَما يقومُ الإنسانُ بعملٍ ما لنفسِه، مثلاً عندَما يَظلِمُ الآخرينَ

١ - مرتضى مرتضى: فطرت [الفطرة]، ص٢٧١.
٢ - مرتضى مطهري، فطرت [الفطرة]، ص٧٨.
٣ - مرتضى مطهري: فطرت [الفطرة]، ص٧٩.
٤ - إميل دوركايم: صور بنياني حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ص٩١.

لمَصالحه الشَّخصيّة أو يَهضمُ حقوقَهم، فإنَّه في هذه الحالة يَعمل لنفسه، ولكنْ عندَما يتعلَّق الأمرُ بالمجتمع، فإنَّه يَخدم المجتمعَ. في هذه الحالة، هل يُمكن القولُ إنَّه يَقوم بهذه الأعمال بأناهُ الاجتماعيِّ؟[1] تُعدُّ هذه النَّظرياتُ برأي الشَّهيد (مطهري) مجموعةً من الآراء التي لم تُثبَتْ ولم يتوافقْ بعضُها مع بعضٍ، بحيثُ يُمكن لشخصٍ أن يَمتلكَ شخصيّتَينِ مُختلفتَينِ[2].

يَنفي الأستاذُ (مطهري) أيَّ نوعٍ من الثُّنائيّة أو التَّعدُّدية في الإنسان؛ لأنَّ امتلاكَ شخصيّتَينِ لا يَعني ازدواجيّةَ الإنسان، فالإنسانُ في جميع حالاته وسلوكيّاته هو الأنا نفسُه، ولكنَّ الأنا لها مراتبُ، ولا يَنبغي عَدُّ مراتبِ الشَّيءِ الواحدِ دليلاً على وجود شخصيّتَينِ مُستقلّتَينِ ومُنفصلتَينِ[3].

من جهة أخرى، من منظور الشَّهيد (مطهري)، الدِّينُ ليس له جانبٌ فرديٌّ كما اعتقدَ (دوركايم)، ورغم أنَّ هذا الأمرَ قد يكون صَحيحًا بالنِّسبة للمسيحيّة أو الأديان الأخرى، إلا أنَّه لا يُمكنُ أن يكون صحيحًا أبدًا بالنِّسبة للإسلام، فالقوانينُ الاجتماعيّةُ في الإسلام تدلُّ على ذلك. يتعلَّقُ هذا النَّقدُ أيضًا بلوازمِ نظريّة (دوركايم) ونتائجِها، يَقول (مطهري) حولَ ذلك ما يأتي:

إذا أصبح الإنسانُ غريبًا عن نفسه بناءً على الدِّين، فيَنبغي أن يكون المُتديِّنونَ دائمًا بين النّاسِ الذينَ، كما تَقولونَ، هم الأكثرُ غُربةً عن أنفسهم؛ أي كلَّما نُسيَت الرُّوحُ الاجتماعيةُ فيهم أكثرَ، وكانوا أكثرَ موتًا، وكلَّما كانوا أكثرَ افتقارًا للأسِّ الاجتماعيِّ كانوا أكثرَ تديُّنًا ومَذهبيّةً لُزومًا، في حين أنَّ الأفرادَ المُتديِّنينَ بالمَعنى الحرفيِّ للكلمةِ هم الذين تكونُ لديهم مشاعرُ اجتماعيّةٌ أكثرُ حيويّةً من الآخرينَ[4].

من منظور (مطهري)، فإنَّ رأيَ (دوركايم) حولَ مَنشأ الدِّين يَعتمدُ على الاعتقادِ بالطَّوطمية، في حين أنَّه حتى لو قُلنا بتأثيرِ الطَّوطمية في نشوءِ بعضِ الأديانَ الشَّرقيّة مثل الهندوسيّة والبُوذية، فإنَّ هذا الأمرَ لا يُمكن أن يكون أساسًا في نشوء الأديان الإلهيّة؛ لأنَّ الأديانَ الإلهيّةَ لها مصدرٌ وحيانيٌّ، وهي بإذنٍ إلهيٍّ وإرادةٍ إلهيّةٍ شرعيّةٍ، والطَّوطميّة ليس لها أيُّ علاقةٍ بهذه الأديان.[5]

---

١ - مرتضى مطهري: اصول فلسفه و روش رئاليسم [أصول الفلسفة والمدرسة الواقعية]، ص٩٨.

٢ - مرتضى مطهري: فطرت [الفطرة]، ص٩٢.

٣ - أحمد فرامرز قراملكي: استاد مطهرى و كلام جديد [الأستاذ مطهري وعلم الكلام الجديد]، ص١٦٣.

٤ - مرتضى مطهري: علل گرايش به مادى گرى [أسباب الميل إلى المادية]، ص١١٢.

٥ - مرتضى مطهري: فطرت [الفطرة]، ص٧٣.

٢ - نقد (جون هيك - John Hick)

قدَّمَ جون هيك في كتابِه "فلسفة الدِّين» نقدًا لنظريّةِ (دوركايم)، وسنَقوم هنا بدراستِه وتحليلِه.

١. يقول (جون هيك) في كتابه "فلسفة الدِّين» ضمنَ نَقدِه للآراء الاجتماعيّة، بما يخصُّ رأيَ (دوركايم) حول مَنشأ الدِّين: لقد ادَّعَوا أنَّ هذه النَّظريّةَ غيرُ قادرةٍ على تحليلِ الإطار العامِّ للدِّين الذي يَتجاوزُ أحيانًا حدودَ أيِّ مجتمعٍ خاصٍّ، وأنَّها تُؤمنُ بنَوعٍ من العلاقةِ الأخلاقيّةِ مع الكائناتِ البشريّةِ. يُركِّزُ في تعاليم الأنبياءِ العِظامِ وعلماءِ الدِّينِ، وفي تعاليمِ عيسى المسيحِ وكنيستِه في أفضلِ عصورِها، على هذه النَّتيجةِ القهريّةِ للتَّوحيدِ، وهي أنَّ اللهَ يُحبُّ جميعَ البشرِ، ويَدعو جميعَ النِّساءِ والرِّجالِ ليَكونوا كالإخوةِ والأخواتِ ضمنَ مشاركتِهم في الحُزنِ. لذلكَ، لا يمُكنُ عدُّ هذه الظّاهرةِ قابلةً للتَّفسيرِ في إطارِ نظريّةٍ اجتماعيّةٍ، لأنَّه إذا كان اللهُ مجرَّدَ صدًى للمجتمعِ وارتدادًا له، فإنَّه قد فرضَ أشكالاً سلوكيّةً معيَّنةً على أفرادِ ذلك المجتمعِ، ولا يمُكن التَّعبيرُ عن أصلِ التَّكليفِ وسببِه الذي يُعبرِّ عن مساواةِ جميعِ البشرِ[١].

لا يُستخدم الجنسُ البشريُّ عامّةً كما هو مُستخدمٌ في النَّظريّةِ الخاصّةِ بعلمِ الاجتماعِ بمَعنى المجتمع. فلو أنَّ نداءَ المجموعةِ أجبرَنا على تَعميمِ الامتيازاتِ المُخصَّصةِ والمُحبَّبةِ للمَجموعةِ على الأفرادِ ممَّن هم خارجَ نطاقِها فكيفَ آنذاكَ يمُكننا أنْ نَعدَّ نداءَ الله متساويًا مع نداءِ المجموعة؟

٢. النَّقد الآخرُ المُوجَّه لهذه النَّظرية هو أنَّ النَّظريةَ الاجتماعيّةَ لـ (دوركايم) غيرُ قادرةٍ على تفسيرِ الإبداعِ الأخلاقيِّ في عقولِ الأفرادِ أو شخصِ الأنبياء. فالنبيُّ الأخلاقيُّ، من حيثُ صفاتُه، هو ابتكارٌ يتجاوزُ القواعدَ الأخلاقيّةَ الموجودةَ، ويَدعو أتباعَه إلى قَبولِ واجباتٍ أخلاقيّةٍ جديدةٍ وفعّالةٍ في حياتِهم. كيف يمُكنُ تَفسير هذا الأمرِ إذا لم يكنْ للواجبِ الأخلاقيِّ مصدرٌ آخرُ غيرُ تجربةِ المجموعةِ المُتماسكةِ التي هدفُها الحفاظُ على نفسِها وتعزيزُها؟

النَّظرية الاجتماعيّةُ مناسبةٌ لـ "مجتمعٍ مُغلَقٍ ثابت". ولكن كيف يمُكن لهذه النَّظريةِ أن تُفسِّرَ الارتقاءَ الأخلاقيَّ الذي يَنشأ بواسطةِ رُؤيةِ الفئةِ الرائدةِ في ذلك المجتمع، والذينَ كانوا أخلاقيًّا

١ - جون هيك: فلسفه دين [فلسفة الدِّين]، ص٩٠.

مُتقدِّمينَ في مجموعاتِهم؟ من الواضح أنَّ الرُّؤيةَ الاجتماعيّةَ لـ (دوركايم) لا يُمكنها أن تُفسِّرَ أصلَ الدِّين[1].

٣. النَّقد الآخرُ هو أنَّ النَّظريّةَ الاجتماعيّةَ لـ (دوركايم) عاجزةٌ عن تفسيرِ قوّةِ الضَّميرِ -التي هي مُستقلّةٌ اجتماعيًّا-، وهو انتقادٌ آخرُ من النَّوعِ نفسه، ويتعلَّقُ بالفردِ الذي يتعارَضُ مع المجتمع، لأنَّه يتحرَّكُ خِلافًا لأهداف المُجتمع وغاياته، كما أنَّ قِيَمَهُ تتعارضُ مع قِيَمِ المُجتمع. إذا كانَت النَّظريّة الاجتماعيّةُ لـ (دوركايم) صحيحةً فإنَّ الشُّعورَ بالتأييدِ وبالمُساعدةِ الإلهيّة، في مثل هذه الحالات، سيَصلُ إلى الحدِّ الأدنى، أو سيكون غيرَ موجودٍ تمامًا. إذا كان اللهُ هو مُجرَّدُ مجتمعٍ في لباسٍ مُبدَّل، فإنَّ النبيَّ لا يُمكن أن يَحصل على التأييدِ الإلهيِّ في مواجهة المجتمعِ أو ضدّه. لكنَّ الأدلّةَ تُشير إلى أنَّ الشُّعورَ بالدَّعم وبالتأييدِ الإلهيِّ غالبًا ما يكونُ في أقصى درجاتِه في مثل هذه الأوقات. هؤلاء الأفرادُ قد استمدُّوا القوّةَ والنَّشاطَ من خلال شعورِهم بنداءٍ واضحٍ للدَّعوةِ والإرشادِ من كائنٍ أبديٍّ. من المُدهشِ أنَّ أنبياءَ العهدِ القديمِ عندَما طُردوا واحدًا تلوَ الآخر، من قِبَلِ أمّتِهم، كانُوا يَجدون نوعًا من الشُّعور بالتقرُّب إلى الله[2]، ومع ذلك، كانوا يَنتمون إلى نوعٍ من المُجتمعاتِ الشَّديدةِ الوَعي والقوميّة، والذي يَنبغي وَفقًا للنَّظريّةِ الاجتماعيّة أن يكونَ قادرًا على فرضِ الإرادةِ على أعضائه بالشَّكلِ الأفضل. لذلك، يَبدو أنَّ الجهودَ الرّاميةَ لإثباتِ الدِّين طبيعيًّا، وتفسيرِه وفقًا لذلك، يُمكن عدُّها أمرًا «غيرَ مُثبت»[3].

خاتمة

١. النِّقاشُ حول أصلِ الدِّينِ هو من المَواضيعِ المُهمّة في فلسفةِ الدِّين واللاهوتِ الحديث، وقد أدَّى إلى العديدِ من الأبحاث حولَ هذا الموضوع، وعُرضت آراءٌ مختلفة. فبرأي (دوركايم)، الدِّينُ ليس وهمًا أو شيئًا بلا أساسٍ، ويَرى المؤمنونَ أنفسَهم مُرتبطينَ من خلاله بقوّةٍ خارجيّةٍ وبدافعٍ

١ - جون هيك: فلسفه دين [فلسفة الدِّين]، ص١٠٠.

٢ - جون هيك: فلسفه دين [فلسفة الدِّين]، ص٧٧.

3 - John Hick: Philosophy of Religion, p32.

خارجيٍّ، ويُدركونَ القِيَمَ الثَّمينةَ التي منحَها لهم، ويَفهمون أنَّهم لَيسوا في حالةِ وَهمٍ أو خطأ؛ هذه القوّةُ موجودةٌ بالفعل، وهي تُمثِّلُ المجتمعَ. لا يَرى دوركايم فائدةً للدِّين سوى المنافعِ الاجتماعيّة، ويَراه بلا فائدةٍ فيما وراء ذلك، لكنَّ رُؤيتَه تعرَّضَت للنَّقدِ إذ إنَّها تتناقضُ مع المبادئ العَقلية.

٢. استند الشَّهيدُ (مطهري) إلى الأُسس الإسلاميّةِ لنَقد آراءِ (دوركايم)، كما نقدَ نظريّتَه في شِقَّي الأُسُس والنَّتائج. فبِرَأيه المجتمعُ ليس هو العامل الرَّئيس في نشوءِ الدِّين أو الثَّقافة أو الفنِّ، فلا يَنبغي عدُّ المجتمعِ عاملاً حقيقيًّا ومُؤثِّرًا في نشوء مثلِ هذه الأمورِ المُهمّة في الحياة الإنسانية. من جهة أخرى، أشارَ الشَّهيدُ (مطهري) إلى نتائجَ مثلِ حصرِ وظيفةِ الدِّين في الحياةِ الفرديّةِ والاغترابِ عن المجتمع، وأنَّ مثلَ هذا التصوُّرِ عن الدِّين، رغم أنَّه قد يكون صحيحًا بالنِّسبةِ للأديان الأُخرى، إلا أنَّه لا يُمكن أن يكونَ صحيحًا بالنِّسبة للأديانِ الإلهيّة، ولا سيَّما الإسلامُ. كما يَعدُّ الشَّهيدُ (مطهري) الاعتقادَ بالطَّوطمية، الذي يُصنَّفُ ضمنَ الأُسس النَّظريّةِ لـ (دوركايم)، أمرًا وهميًّا وغيرَ مَقبول.

٣. حاول (جون هيك-John Hick)، الذي يُعدُّ من أبرزِ المُفكِّرينَ المَسيحيِّينَ أيضًا تحدِّيَ آراءِ (دوركايم) الاجتماعيّةَ حولَ أصلِ الدِّين. فبرأي (هيك)، إنَّ رؤيةَ (دوركايم) الاجتماعيّةَ لن تكونَ قادرةً أبدًا على تفسير تَعاليم كثيرٍ من الأديان وكذلك مُعجزاتِ الأنبياءِ الإلهيِّينَ، بسببِ القيودِ والانحصارِ الذي تَفرضُه على نفسها، باقتصارها على المجتمع، ومن جهة أُخرى، على الشَّعائرِ الدِّينيّة، ولا يمُكن تقديمُ تحليلٍ مناسبٍ لها؛ لأنَّه حسب رأيه فإنَّ مثلَ هذه الأمورِ والظَّواهر هي من المجتمع وقيوده، ولها أصلٌ غيرُ إنسانيٍّ. كما يَعدُّ هيك أنَّ عبارة (دوركايم) "المجتمعُ هو أصلُ الدِّين» هي عبارةٌ غيرُ مُثبَتةٍ وغيرُ مُبرَّرة، ولن تكونَ قادرةً أبدًا على تفسير أصلِ الدِّين بشكلٍ جيِّد. برأي (هيك)، يمُكن أن تكونَ رؤيةُ (دوركايم) في النِّهاية واحدةً من العوامل المُؤثِّرةِ في الحياة الدِّينية، وليسَت الأصلَ في نشوءِ الدِّين.

٤. بالنَّظر إلى انتقاداتِ الشَّهيد (مطهري) و(جون هيك) المُوجَّهة لنظريّةِ (دوركايم) في علم الاجتماعِ حول مَنشأ الدِّين يمُكنُ القولُ إنَّ نظريّةَ (دوركايم) ليسَ لها أيُّ أسٍّ عقلائيٍّ ولا أيُّ بُرهان مُثبَت، كما أنَّ هذا الفهمَ الاحتكاريَّ للدِّين، المُستندَ إلى مبادئَ خُرافيّةٍ ووَهميّةٍ كالطَّوطمية، لا يمُكنه أن يُوضِّحَ ماهيّةَ ظهورِ الدِّينِ بتاتًا.

المصادر والمراجع

باللغة الفارسية

■ آرون ريمون: مراحل اساسى سير انديشه در جامعه شناسى [المراحل الرئيسة لمسار الفكر في علم الاجتماع] ترجمه بالفارسية باقر پرهام، دار النشر العلمي الثقافي، طهران، ط١، ١٩٩٨م.

■ أحمد فرامرز قراملكي: استاد مطهرى و كلام جديد [الأستاذ مطهري وعلم الكلام الجديد]، مركز بحوث الثقافة والفكر الإسلامي، طهران، ط١، ٢٠٠٤م.

■ إميل دوركايم: صور بنياني حيات دينى [الأشكال الرئيسة للحياة الدِّينية]، ترجمه بالفارسية رُؤيا خوي، دار المركز للنشر، طهران، ط٦، ٢٠١٧م.

■ ـــــــــــــــــ: قواعد روش جامعه شناختى [قواعد منهج الدراسات الاجتماعية]، ترجمه بالفارسية جلنار نوري علمي، دار نشر باريستان، طهران، ط١، ٢٠٢١م.

■ ـــــــــــــــــ: قواعد روش جامعه شناسى [القواعد المنهجيّة في علم الاجتماع]، ترجمه بالفارسية هوشنغ نايبي، دار آكاه للنشر، طهران، ط٦، ٢٠١٤م.

■ ـــــــــــــــــ: جامعه شناسى و فلسفه [علم الاجتماع والفلسفة]، ترجمه إلى الفارسية مرتضى ثاقب فر، دار سايه للنشر، طهران، ط١، ٢٠١٢م.

■ أنطونيو مورينو: يونگ، خدايان و انسان مدرن [يونغ، الآلهة والإنسان الحديث]، ترجمه بالفارسية داريوش مهرجوي، دار المركز للنشر، طهران، ط١، ٢٠١١م.

■ جعفر سبحاني: "دفاع عقلاني عن الدِّين"، فصلية النقد والرأي، السنة السابعة، العدد(٢)،

ص.ص. ٤٨-٦٥، ٢٠١٠م.

■ جورج ريتزر: نظريه جامعه شناسى در دوران معاصر [نظرية علم الاجتماع في العصر الحديث]، ترجمه بالفارسية محسن ثلاثي، دار علمي للنشر، طهران، ط١، ٢٠١٢م.

■ جون هيك: فلسفه دين [فلسفة الدِّين]، ترجمه بالفارسية بهرام راد، دار هدى للنشر، طهران، ط١، ١٩٩٣م.

■ دانيال بالس: هفت نظريه در باب دين [سبع نظريات حول الدِّين]، ترجمه إلى الفارسيّة عزيز بختياري الطبعة الأولى، قم: مؤسسة الإمام الخميني (ره) للدراسات والبحوث، ٢٠٠٤م.

■ زيغموند فرويد: تابو وتوتيم [التابو والطوطم]، ترجمه بالفارسية إيرج بورباقر، منشورات آسيا، طهران، ط١، ١٩٨٣م.

■ عبد الله جوادي آملي: انتظار بشر از دين [ما يريده البشر من الدِّين]، حققه ونظمه محمد رضا مصطفى بور، نشر إسراء، قم، ط٢، ٢٠٠١م.

■ علي رضا شجاعي زند: جامعه شناسى دين [علم اجتماع الدِّين]، دار ني للنشر، طهران، ط٢، ٢٠١٢م.

■ علي رضا قائمى نيا: در آمدى بر منشأ دين [مقدمة في منشأ الدِّين]، دار معارف للنشر، قم المقدسة، ط١، ٢٠٠٠م.

■ مالكوم هميلتون: جامعه شناسى دين [علم اجتماع الدِّين]، ترجمه بالفارسية محسن ثلاثي، دار ثالث للنشر، طهران، ط٤، ١٩٩٣م.

■ محمد حسين طباطبائي: الميزان، ترجمه بالفارسية محمد باقر همداني، دار إسلامي للنشر، قم، ط١، ١٩٨٤م.

■ مرتضى مطهري: اصول فلسفه و روش رئاليسم [أصول الفلسفة والمدرسة الواقعية]، منشورات صدرا، طهران، ط١٤، ٢٠١٠م.

■ ـــــــــــــــ: بيست گفتار [عشرون مقالاً]، الطبعة السابعة، طهران: صدرا،

١٩٩١م.

■ ـــــــــــــــــــ: علل گرايش به مادى گرى [أسباب الميل إلى المادية]، دار صدرا للنشر، قم المقدسة، ط٦، ٢٠٠٩م.

■ ـــــــــــــــــــ: فطرت [الفطرة]، منشورات صدرا، طهران، ط١، ٢٠٠٣م.

■ ـــــــــــــــــــ: مجموعة آثار [الأعمال الكاملة]، مج ٢، منشورات صدرا، طهران، ط١، ١٩٩٥م.

باللغات الأجنبية

■ Barbara King: Evolving God: A Provocative View on the Origins of Religion, New York: Doubleday Publishing, 2007.

■ Auguste Conte: Introduction to Positive Philosophy, Indiana: Hackett Publishing Company, 1998.

■ Emile Durkheim: The Elementary Forms of Religious Life, trans. By Karen E. Fields, New York: The Free Press, 1995

■ Ludwig Feuerbach: The Essence of Christianity, Oxford: Oxford University Press, 1845.

■ John Hick: Philosophy of Religion, New Jersey: Prentice-Hall, 1990.

■ Karl Marx; & Friedrich Engels: Manifesto of the Communist Party or The Communist Manifesto, New York: Grapevine, 2019.